

درس 89 بدء الرسالة

بدء الوحي

لما كَمَلَ سنه صلى الله عليه وسلم أربعين سنة- وهو سن الكمال، أكرمه الله تعالى بالنبوة والرسالة رحمة للعالمين.

فبينما هو صلى الله عليه وسلم في خَلْوَتِهِ بغار حِراء، وكان ذلك في شهر رمضان على أصحِّ الروايات، إذ جاءه جِبْرِيلُ الأمين عليه السلام بأمر الله تعالى، ليبلغه رسالة ربه عز وجل، وقد تمثل جِبْرِيلُ عليه السلام في هذه المرة بصورة رجل. فقال له: اقرأ، فقال له عليه الصلاة والسلام: ما أنا بِقَارِيٍّ (لأنه صلى الله عليه وسلم كان أمياً لم يتعلم القراءة)، فَغَطَّهُ جِبْرِيلُ عليه السلام في فراشه غَطًّا شديداً (أي ضمه وعصره بشدة)، ثم أرسله فقال له: اقرأ، فقال: ما أنا بِقَارِيٍّ، فَغَطَّهُ ثانية ثم أرسله وقال له: اقرأ، فقال: ما أنا بِقَارِيٍّ، ثم غَطَّهُ الثالثة وأرسله فقال له: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ). فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وانصرف عنه جِبْرِيلُ عليه السلام وهو يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جِبْرِيلُ. فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله يَرْجُفُ فواده مما أدركه من الرُّوع لشدة مقابلة المَلَكِ فجأة وشدة الغَطِّ التي اقتضاها الحال. ولما رجع عليه الصلاة والسلام إلى أهله، ودخل على زوجته خديجة رضى الله عنها قال: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي (أي اطحوا عليَّ الغطاء ولقُوني به - ليذهب عنه الروع)، فلما ذهب عنه الروع أخبر خديجة رضى الله عنها بما كان، فقالت له: أبشر يا ابن عم واثبت، فإني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة.

ثم ذهبت خديجة مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى ابن عمها وَرَقَةَ بن نَوْفَل، وكان شيخاً كبيراً يعرف الإنجيل وأخبار الرسل، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما رآه، فقال له وَرَقَةَ: هذا النَّامُوسُ الذي نَزَّلَ اللهُ على موسى، أي أن هذا المَلَكُ الذي جاءك هو النَّامُوسُ؛ أي صاحب سر الوحي الذي نزله الله تعالى على نبيه موسى عليه الصلاة والسلام؛ لأنه يعرف من الكتب القديمة وأخبارها أن جِبْرِيلُ هو رسولُ الله إلى أنبيائه.

ثم تَمَنَّى ورقة أن لو كان شاباً يقدر على نُصْرَةِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم عند ظهوره بأمر الرسالة ومُعَادَاةِ قَوْمِهِ له؛ لأنه يعرف من أخبار الرسل أن قومهم يُعَادُونَهُمْ في مبدإ أمرهم، ثم توفي وَرَقَةَ بعد ذلك بزمان قريب.

فترة الوحي وعودته

بعد هذه الحادثة قَنَرَ الوحي وانقطع مدةً لا تقل عن أربعين يوماً، اشتدَّ فيها شوقُ النبي صلى الله عليه وسلم إلى الوحي وشقَّ عليه تأخره عنه، وخاف من انقطاع هذه النعمة الكبرى: نعمة رسالته عليه الصلاة والسلام بين الله عز وجل وبين عباده ليهديهم إلى صراطه المستقيم. فبينما النبي صلى الله عليه وسلم يمشى في أفنية مكة إذ سمع صوتاً من السماء، فرفع بصره فإذا الملكُ الذي جاءه بغار حراء وهو جبريلُ عليه السلام، فعاد إليه الرعب الذي لحقهُ في بدء الوحي فرجع إلى أهله وقال: دَنَرُونِي دَنَرُونِي (التدثير بمعنى: التزميل السابق بيانه).

فأوحى الله تعالى إليه:

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ

فَأَنْذِرْ: حذّر الناس من عذاب الله إذا لم يُفردوه بالعبادة. **فَكَبِّرْ:** أي عَظِّمُ ربك وخُصَّه بالتعظيم والإجلال. **فَطَهِّرْ:** أي حافظ على الطهارة والنظافة من الأقدار والأنجاس. **وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ:** أي اترك المآثم والذنوب. **وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ:** أي لا تُثبِعْ عطاياك وهياتك بالطمع في أخذ الزيادة ممن تعطيه. **وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ:** أي اصبر على ما يَلْحَقُكَ من الأذى في سبيل الدعوة إلى الإسلام ابتغاء وجه ربك.

فكان ذلك مبدأ الأمر له صلى الله عليه وسلم بالدعوة إلى الإسلام وبعد ذلك تتابع الوحي ولم ينقطع.

كيفية الوحي

للوحي طرق متنوعة وقد عرفت أن من مبادئه الرؤيا الصادقة، فرويا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هي من قبيل الوحي.

ومن طرق الوحي أن يأتي الملكُ إلى النبيِّ متمثلاً بصورة رجل، فيخاطب النبيَّ حتى يأخذ عنه ما يقوله له ويوحى به إليه، وفي هذه الحالة لا مانع من أن يراه الناس أيضاً، كما حصل في كثير من أحوال الوحي لنبيينا عليه الصلاة والسلام.

ومن طرق الوحي أيضاً أن يأتي الملكُ في صورته الأصلية التي خلقه الله تعالى عليها، ويراه النبيُّ كذلك فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحى به، ولم يحصل هذا لنبيينا عليه الصلاة والسلام إلا قليلاً.

ومن طرق الوحي أيضاً أن يلقي الملكُ في رَوْعٍ (أي ذهن) النبيِّ وقلبه ما يوحى به الله إليه، من غير أن يرى له صورة، وقد حصلت هذه الكيفية أيضاً لنبيينا صلى الله عليه وسلم.

وأحيانا كان يأتي الملكُ مخاطباً للنبيِّ بصوتٍ وكلامٍ مثل صُلْصُلَةِ الجرس (أي صوته)، وهذه الحالة من أشد أحوال الوحي على النبي، فقد كان نبيُّنا صلى الله عليه وسلم عندما يأتيه الوحي بهذه الكيفية يعرق حتى يسيل العرق من جبينه في اليوم الشديد البرد، وإذا أتاه وهو راكب تَبْرُكُ به ناقته.

وقد يكون الوحي بكلام الله تعالى للنبيِّ بدون واسطة الملك، بل من وراء حجاب، كما حصل ليلة الإسراء لنبيينا صلى الله عليه وسلم.